مجلة جامعة تشرين للدراسات والبحوث العلمية سلسلة العلوم الإنسانية عدد (6) لعام 1417 هـ 1996 م عدد خاص بندوة التعريب وصلته بشخصيتا الوطنية والقومية

التعريب ودوره في تحقيق الانتماء الوطني والقومي

د. سامي عوض*

مرَّ مفهوم التعريب بأطوار كثيرة، وتغيرت دلالته تغيراً كبيراً. فالتعريب لغةً يعني الإبانة والإفصاح، يذكر ابن منظور: "أعرب عن لسانه، وعرَّب أي أبان وأفصح، ويقال: أعْرَب عن الرجل بيّن عنه، وعرَّب عنه تكلم بحجته، ويقال: عرّبْتُ له الكلام تعريباً، وأعربت له إعراباً إذا بيّنته، ومن هذا يقال للرجل الذي أفصح بالكلام أعرب"[1].

والتعريب بمعناه الاصطلاحي هو "ان تتفوه العرب بالكلمة الأعجمية على منهاجها"[2].

وطرحت قضية التعريب على الصعيد العربي وسيلة وغاية في الآن ذاته، فهي وسيلة للتحرير، وغاية للسيادة والاستقلال الثقافي والحضاري عن الاستعمار القديم المتجدد، وهكذا بادرت الدول العربية بعد حصولها على الاستقلال السياسي إلى العمل على استكمال شروط التحرر لإكساب ذلك الاستقلال مقوماته الأساسية شكلاً ومضموناً فكراً وسلوكاً، وأهم ذلك استرجاع اللغة العربية أهميتها باعتبارها رمزاً للسيادة، وتحقيقاً للأهداف القومية"[3].

ومما يؤكد أهمية هذه القضية أن اهتمت بها جامعة الدول العربية، ووضعتها ضمن أحد محاور نشاطها، حيث عقد أول مؤتمر للتعريب على الصعيد العربي في الرباط سنة 1961، انبثق عنه تأسيس مكتب تنسيق

---

* الدكتور سامي عوض أستاذ في قسم اللغة العربية بكلية الآداب والعلوم الإنسانية في جامعة تشرين اللاذقية - سورية.

[1] ابن منظور، لسان العرب مادة عرب، الجزء الثاني ص. 78-79

[2] المصدر السابق، وقد ذكر الدكتور ممدوح خسارة في كتابه التعريب والتنمية اللغوية تحت عنوان: مفهوم التعريب ص. 14-19" أهم معاني التعريب حيث قال: ومما ذهب إليه القدماء والمحدثون من استعمال (التعريب) بمعنى الترجمة لا يبعد كثيراً عن معنى الإبانة والإفصاح، فكأن الترجمة تفصح وتبين عن المقصود من الكلمة أو العبارة غير العربية، واستعملت كلمة (التعريب) بمعنى جعل لغة الإدارة والتعليم هي العربية، بعد أن كانت تلك اللغة غير عربية... وعلى أية حال فإن كلمة (التعريب) عندما تطلق في المشرق العربي فأكثر ما يقصد بها وضع المصطلح العلمي الغربي، أما في المغرب العربي فأكثر ما يراد بها تعريب الإدارة والتعليم، والتعريب بهذا المفهوم وهو (وضع المصطلح العربي) يعد من البحوث اللغوية الهامة، بل الأهم في هذا العصر... ثم المفهوم السياسي الاجتماعي للتعريب الذي يعد الرد الفكري على حالة (التغريب) التي تعاني منها الأمة في هذا العصر.

[3] التعريب بين المبدأ والتطبيق، الدكتور أحمد بن نعمان، طبع الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1401 هـ - 1981 م ص. 14-15

التعريب في الوطن العربي الذي مـا زال قائماً بأعماله إلى الآن في الرباط[4].

ومما جاء في توصيات المؤتمر الأول:

- يوصي المؤتمـر أن تكـون اللغـة العربيـة لغـة التعليـم لجميـع المـواد في جميـع المراحـل والأنواع في كل قطر عربي.
- يوصي المؤتمر الـدول العربيـة بوضـع خطـة لتوجيه وسائل الإعلام العامة من صحافـة، وإذاعة، وسينما، وغيرها لتكون وسيلة من وسـائل التعريـب، ونشـر اللغـة العربيـة الفصحى بـين طبقـات الشـعب المختلفـة، وتقريب لغة التخاطب من الفصحى.

ويجدر بـالذكر أن التوصيـات المنبثقـة عن جميع المؤتمرات اللاحقة حـول التعريـب لم تكـن أقـل تـأكيداً علـى ضـرورة التعريـب في الوطن العربي من هذه، بـل وتزيـد إلحاحـاً في لطلب، وتنبيهاً للخطورة الناجمة عـن التهويـن من شأن هذا المبدأ القومي، والهدف الحضاري الخطير[5].

غير أن المبادئ العربيـة شـيء والواقـع العربي شيء آخر، وقد ساعد علـى اسـتفحال هذه المفارقـة في الواقـع العربـي غيـاب الوعـي الحقيقـي، والإدراك الكـامل لأبعـاد التعريـب المختلفة.

ويقول الدكتور أحمـد بـن نعمـان بما معنـاه: "ويجـدر بنـا أن نشـير إلى أن قضيـة التعريـب ليسـت مسـألة محـو أميـة بـالأحرف العربية بل هي قضيـة قوميـة، وليسـت مسـألة إصـلاح لسـان فقـط، بـل هـي قضيـة كيـان وليست مسألة أشعار عاطفية، بـل هـي قضيـة علموإبداع، وابتكار، وأصالة حضارية"[6].

ثم يقول الدكتـور أحمـد بـن نعمـان: "ويجدر التنبيه هنا إلى أن المناداة بالتعريب على المستوى الوطـني والقومـي، وكـذا اسـتعمال لفظة (التعريب) لا تتعارض -أبداً- مع كوننـا عرباً شعوراً ووجدانـاً في الأصـل... فالعروبـة شعور قومي ووجداني، والتعريب نشر للسـان هـذا الشـعور القومـي علـى أوسـع نطـاق ممكـن... ومـن هنـا يكـون التعريـب دعمـاً للعروبة وتحقيقاً لها"[7].

إن اللغـة المشـتركة تـؤدي دوراً هامـا وكبيراً في تحقيـق الوحـدة الوطنيـة والمحافظـة عليها، ذلك أن المجتمع الـذي يتحـدث أفـراده لغةً واحـدة مشـتركة سـيكون متحـداً بكيفيـة

---

[4] عقدت عدة مؤتمرات للتعريب تحت إشراف الجامعـة العربيـة المؤتمـر الثـاني عقـد في الجزائـر 1973، والمؤتمـر الثـالث في طرابلس الغرب سنة 1977، والمؤتمر الرابع في طنجة سنة 1981 م، والمؤتمر الخامس في عمّان 1985، والمؤتمر السادس في الرباط 1988.

ويعقب كل مؤتمر عـادة إصـدار وثيقـة تتضمـن المبـادئ والاتجاهات والتوصيات التي عمل المؤتمر في ظلها، ويطمـح إلى تحقيقها.

ينظر: التعريب والتنمية اللغوية للدكتور ممدوح خسارة "عنوان مؤتمرات التعريب" ص. 218-220

[5] التعريب بين المبدأ والتطبيـق للدكتـور أحمـد بـن نعمـان ص. 16.

التعريب والتنمية اللغوية للدكتور ممدوح خسارة ص. 219

[6] التعريب بين المبدأ والتطبيق، ص. 16-17

[7] التعريب بين المبدأ والتطبيق ص. 18-19

طبيعية ولا تنعدم الوحدة بين أفراده إلاّ إذا تدخلت عوامل خارجية قضت عليها بالقوة مثلما هو الحال في المجتمع الصيني أو الكوري غير أن هذا التقسيم القسري الحاصل في هذه المجتمعات لا يعدو أن يكون اصطناعياً -مهما طال الزمن- إذا بقيت اللغة المشتركة واحدة بين أفراد المجتمع المقسم، حيث يبقى أفراد هذا المجتمع دائمي التطلع والتوقتات إلى استرجاع الوحدة الطبيعية بين أجزائه المفككة، ومثال ذلك المجتمع الفيتنامي الذي صمد، وقاوم السنوات الطوال من أجل استرجاع وحدته الوطنية بفضل احتفاظه بشخصيته المتميزة التي تمثل اللغة المشتركة أحد مقوماتها الأساسية.

إن اللغة (الأم) أواللغة القومية هي اللغة التي يفتح بها الطفل عقدة لسانه منذ ظهوره، وهي أول ما يصغي إليه عندما تناغيه أمه، وهي ألصق الناس به عند الولادة لذلك كان إطلاق لفظة (اللغة الأم) على اللغة الأولى التي يتحدث بها الطفل مع أقرب الناس إليه وهي أمه، راجعاً إلى تشبيهها بالأم في في التصاقه بها منذ الصغر، وحبه لها، واستعمالها في التعبير عن رغباته كلها، وهكذا يكبر الطفل مرتبطاً بلغته (الأم)، كما يرتبط بوالدته ومربيته الأولى، ومن هنا فإن الشعب الذي يتبنى لغة أجنبية عنه ستحتل مركز الصدارة إليه، وتصير بدورها اللغة القومية إذ ذاك تلغى أمومة اللغة الأولى لتصبح لغة تابعة، وفي هذا يقول الدكتور كمال الحاج: "من هنا كان الشعب الواعي الشريف العفيف يكبر شأن لغته القومية، ويحرص عليها كما يحرص على عرضه متى ذلت هي ذل هو"[8].

فاللغة القومية وقف على الشعب في نواحي وجوده القومي كلها، وفي ذلك يقول الدكتور كمال الحاج: "الأمة الراقية لا تكون لغتها راقية في ناحية دون ناحية، لا تكون لغتها راقية جزئياً، كأن تكون لغة الأدب، والشعر، والدين، ولا تكون لغة باقي العلوم. الأمة الراقية لا ترضى للغتها إلاّ ارتقاء العلم ابلذي هو أضمن صك لمناعة بقائها، وأصلح طريقة لجعلها قوامة على سواها تحت سقف بيتها. أما اللغة التي لا تعبر إلاّ عن بعض أحوال الأمة (كأن تكون لغة القلب ولا تكون لغة العقل) فهي لغة عوراء تظل عرضة للزوال عندما تجابه لغة ثانية من الخارج، اللغة الأم تتناول متكلميها في جميع أحوالهم العقلية، والقلبية، لأنها لا تقبل ضرة في عقر دارها. هذه هي اللغة المرفوعة الشأن، وهذه هي الأمة العزيزة الجانب، اللغة القومية، والأمة القومية شرطان متلازمان، الأولى أصدق الصور عن الثانية، وأضبط المقاييس لها، تزدهر بازدهار الأمة، وترتقي بارتقائها، وتلاحقها في كل

[8] د. كمال يوسف الحاج، فلسفة اللغة، دار النشر للجامعيين، بيروت، 1950، ص. 150-151، وبكتاب التعريب بين المبدأ والتطبيق الدكتور أحمد بن نعمان ص. 249

مظاهرها الاجتماعية، حتى إذا انحدرت الأمة انحدرت اللغة معها"[9].

فإذا كانت اللغة أداة التفاهم، واكتساب المعرفة، وحاضنة الفكر، ووعاء العلم، وأقوى الروابط التي تشد الأفراد وتجمعهم، وتكون من مجموعهم أمة متميزة قادرة على البقاء والنمو، فإن للغة العربية مكانة متميزة بين لغات الأمم، لا لأنها من أقدم اللغات الحية فقط، بل لأن تكوينها وخصائصها يسّرا لها القدرة على التعبير عن مختلف الأشياء المادية وأدق الأفكار المجردة، ويكفيها فخراً أن القرآن الكريم نزل بها، فلما شُرفت العربية بنزول القرآن الكريم بها، أصبح الاعتزاز منوطاً بتلك الكرامة الإلهية خاصة، وباعثاً إلى دراستها لفهم آيات الذكر الحكيم وإدراك أسرار البلاغة فيها، وفهم الأحاديث النبوية الشريفة، وعمق دلالاتها في أحكام الشريعة، وفي آداب السلوك، وحكمة الحياة وقيمتها"[10].

وتتجلى في آيات القرآن الكريم مكانة اللغة العربية وسعتها، وثباتها فقد ذكرت عدة آيات أنه قرآن عربي "إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون"[11]، وأنه لسان عربي مبين"[12].

وكان طبيعياً أن يقترن الاعتزاز باللغة العربية بالأمة العربية نظراً لأنها الأمة التي اختارها الله دون سائر الأمم لتحمل مسؤولية نشر الرسالة والدعوة إليها[13].

فليست العربية -بالنسبة لنا- كأية لغة أخرى ندرسها أو تدرسها طائفة منا للتعرف على ما عند أصحابها إنما هي القلب من قوميتنا العربية، فهي أهم رابطة من روابطها، وهي السبيل الذي لا سبيل سواها لوصل حاضر الأمة بماضيها، وقد لا نجانب الصواب إذا قلنا: إنّها هي الشخصية العربية، ولا قوام لهذه الشخصية دونها، وإذا صح ما ذهب إليه الرافعي من أن اللغة صورة وجود الأمة، بأفكارها، ومعانيها، وحقائق نفوسها وجود متميزاً قائماً بخصائصه[14]، فإنما يصح على لغتنا هذه أكثر من غيرها، لأنها وجدت مع الحياة العربية منذ نشأتها، ولازمتها ملازمة الروح للجسد لم تستبدلها بغيرها، ولم تستغن

---

[9] فلسفة اللغة ص. 154، والتعريب بين المبدأ والتطبيق 149-250

[10] بعض خصائص اللغة العربية ص. 48، من مقال بعنوان "العربية الفصيحة لغة التعليم في الوطن العربي" للسيد عبد العزيز البسام، نشر مركز دراسات الوحدة العربية بمجلة "اللغة العربية والوعي القومي".

[11] طه، 113، الشورى 7، الزخرف 3، الأحقاق 12.

[12] الأحقاق 12، الشعراء، 191-195

[13] اللغة والوجود القومي مقال للسيد يلسين خليل نشر بمجلة "اللغة العربية والوعي القومي" نشر مركز دراسات الوحدة العربية، ص. 350

[14] مطصفى صادق الرافعي وحي القلم 3ج (القاهرة دار المعارف) ج3، ص. 36، وينظر ص. 282، من مقال بعنوان "أهمية اللغة في الحياة الانسانية للسيد محمد جابر الفياض نشر بمجلة اللغة العربية والوعي القومي الصادرة عن مركز دراسات الوحدة العربية.

عنها في يوم من أيام حياتها فلا قومية لنا قبلها، ولا قومية لنا بعدها". "وبها توحد العرب قديماً، وبها يتوحدون اليوم، ويؤلفون في هذا العالم رقعة من الأرض، تتحدث بلسان واحد، وتصوغ أفكارها، وقوانينها، وعواطفها في لغة واحدة على ثنائي الديار، واختلاف وتعدد الدول"[15].

ولهذا ذهب العقاد إلى أن الحملة على اللغة في الأقطار الأخرى إنما هي حملة على لسانها، أو على أدبها، وثمرات تفكيرها على أبعد احتمال، ولكن الحملة على لغتنا نحن حملة على كل شيء يعنينا، وعلى كل تقليد من تقاليدنا الاجتماعية، والدينية وعلى اللسان، والفكر، والضمير في ضربة واحدة، لأن زوال اللغة في أكثر الأمم يبقيها بجميع مقوماتها غير ألفاظها، ولكن زوال اللغة العربية لا يبقى للعربي أو للمسلم قواماً يميزه من سائر الأقوام، ولا يعصمه من أن يذوب في غمار الأمم فلا تبقى له باقية من بيان، ولا عرف، ولا معرفة، ولا إيمان[16]. فما أحرانا أن نحمي هذه اللغة من الأخطار التي تهددها! لأن الأمم الحية تدرك معنى سلامة لغتها القومية، وتعميم استخدامها، ودورها في تكوين الشخصية المستقلة للأمة وتقوية أصالتها فاللغة كالوطن يجب أن يكون الدخول إليه مقنناً ومرتبطاً بالمصلحة العامة، لا أن تكون الحدود مفتوحة للاستيطان الأجنبي، والهجرات الوافدة دون رواع أو قيود، فكما أن الأمة المستقلة هي التي لها حدود آمنة، كذلك اللغة الحية المستقلة هي التي لها حدود تحميها، وهذا الواجب القومي مزدوج المسؤولية، فهو يحتاج لمسؤولية فنية تضطلع بها المجامع العلمية والمختصون، ومسؤولية سياسية تضطلع بها الدولة التي تستطيع بالتشريع أن تحافظ على اللغة العربية، وأن توفر لها أسباب النمو والتطور الصحي السليم.

وهذا ما جعل قطرنا العربي السوري قبل الاستقلال وبعده يواصل عنايته برفع مستوى اللغة العربية، وجعلها لغة التدريس في كليات الجامعة كلها، مع العناية باللغات الأجنبية التي ينبغي أن تكون روافد تثري اللغة العربية وتطورها حتى تكون العربية القالب الوحيد الذي يصب فيه المبدع إبداعه، فلما كانت الحركة التصحيحية المباركة لقيت العربية من رعاية السيد الرئيس حافظ الأسد وعنايته ما لم تلقه في أية فترة سبقت وليس هناك أبلغ من تعبيره عن أهمية لغتنا ومكانتها ودورها حيث يقول سيادته: "لغتنا العربية هي عنوان هويتنا، وهي الرابطة بين الناطقين بالضاد، وهي اهم صلات الماضي بالحاضر والمستقبل، بها نعبر عن ذاتنا، وننشر في الوطن

---

[15] محمد المبارك، "فقه اللغة وخصائص العربية" دراسة تحليلية مقارنة للكلمة العربية، وعرض لمنهج العربية الأصيل في التجديد والتوليد ط4 (بيروت، دار الفكر الحديث، 1970) ص. 232 وص. 282 من المقال المشار إليه آنفاً..

[16] عباس محمود العقاد، أشتات مجتمعات في اللغة والأدب ط2، القاهرة دار المعارف ص 127 وص 282 من المقال الآنف الذك.

العربي نتاج الفكر العربي وننقل إلى أبناء الأمة العربية النتاج الفكري للشعوب الأخرى".

وانطلاقاً من إيمان السيد الرئيس حافظ الأسد بأهمية اللغة العربية أصالة، وتراثاً، وحضارة، ومستقبلاً مشرقاً، وجه سيادته العمل إلى جمع المخطوطات العربية وثبت الجامعات السورية على التدريس بالعربية، وأرسل المراسيم تباعاً لرفع مستوى اللغة العربية بين أساتذة الجامعات وطلابها، وتمسكه بالعربية الفصحى خطابة وحديثاً ومشا ومشافهة دليل ساطع على هذا الإيمان الراسخ.

"إن الاتجاه المعادي لتعريب العلوم يؤدي دوراً تخريبياً ضد اللغة العربية، لأنه يمنع اللغة من التطور عبر القنوات المعروفة في الاشتقاق، والنحت والتعريب وغيرها، كما يقيد اللغة العربية في المساهمة العلمية لتكون لغة علمية شأنها في ذلك شأن اللغات الأخرى، ويخلق هذا الاتجاه وضعاً نفسياً لدى الانسان العربي قد يؤدي من دون أن يعرف إلى احتقار لغته، والتقليل من شأنها لأنها ليست لغة علم، ويفضل عليها لغات أخرى مما يزيد الهوة بين المثقف، والعالم، ولغته القومية، ووجوده القومي.

إن التعريب ضرورة قومية ولغوية، قومية لأن التعريب يزوّد الوجود القومي بأنشطة جديدة، ولغوية ولأنَّ التعريب أيضاً تعبير عن استمرار اللغة في أداء وظيفتها على الصعيدين لخلق الثقة القومية بقدرة لغته على الأداء العلمي والأدبي، ولاستمرارها في عملية التجدد والخلق اللغويين"[17].

إن الحفاظ على اللغة العربية وسلامتها حفاظاً على الأمة ووحدتها، والتمسك بها أول السبيل إلى الوحدة الكبرى، وإن نشرها في العالم اعتراف بأمة العرب، ودورها في بناء الحضارة الحديثة، وخلق الانسان الجديد.

---

[17] ينظر مقال "اللغة والوجود القومي"، للأستاذ ياسين خليل ص. 360، مجلة مركز دراسات الوحدة العربية واللغة، العربي والوجود القومي" الطبعة الثانية بيروت حزيران 1986

المصادر والمراجع

1. أشتات مجتمعات في اللغة والأدب للأستاذ عباس محمود العقاد الطبعة الثانية دار المعارف مصر.
2. التعريب بين المبدأ والتطبيق الدكتور أحمد بن نعمان طبع الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 1401هـ-1981م.
3. التعريب والتنمية اللغوية الدكتور ممدوح خسارة طبع مطبعة الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع دمشق الطبعة الأولى 1994م.
4. فقه اللغة وخصائص العربية الأستاذ محمد المبارك طبع دار الفكر الحديث بيروت 1970.
5. فلسفة اللغة الدكتور كمال يوسف الحاج دار النشر للجامعيين بيروت 1950.
6. لسان العرب ابن منظور طبعة مصورة عن طبعة الولات طبع المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأبناء والنشر، والدار المصرية للتأليف والترجمة.
7. اللغة العربية والوعي القومي بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية الطبعة الثانية بيروت حزيران/يونيو 1986.
8. وحي القلم مصطفى صادق الرافعي القاهرة دار المعارف.